

اليهود بين سرديّة الاضطهاد وواقع التعايش: قراءة تاريخية من العصور الوسطى إلى عصر التنوير

The Jews between the Narrative of Persecution and the Reality of Coexistence: A Historical Reading from the middle Ages to the Age of Enlightenment

حلمي العليوي

طالب دكتوراه في علم الأديان_ كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة تونس

aliouihilmi@gmail.com

تاريخ الإستلام: 2025-06-15 تاريخ القبول: 2025-10-24 تاريخ النشر: 2025-12-20

ملخص:

يكشف تحليل علاقة اليهود بتاريخهم عن حضور قوي للرؤية البكائية التي صاغت الاضطهاد كجوهر للهوية. هذا المنظور، الذي بالغ في تصوير اليهود كـ"ضحايا أبديين"، شكّل أساساً لتبريرات لاحقة للفكر الصهيوني الذي حوّل التاريخ إلى ذخيرة سياسية. ورغم وجود فترات ازدهار وتعايش في مجتمعات إسلامية وأوروبية، فقد جرى تهميشها لصالح سرديّة المعاناة المستمرة. حتى حركة الهسكلاه، التي سعت إلى الاندماج والتنوير، أُعيد تفسيرها لاحقاً كفشل للاندماج، مما عزز خطاب العزلة والانفصال. النقد الأكاديمي، كما عند سلو بارون، أبرز خطورة هذه الرؤية الأحادية التي تحوّل التاريخ إلى أسطورة قومية. فبدلاً من أن تكون ذاكرة الاضطهاد دافعاً نحو العدالة، تحولت إلى أداة لتبرير الاستيطان وإعادة إنتاج الإقصاء ضد الآخر. إن القراءة النقدية للتاريخ اليهودي تكشف أن اختزاله في المأساة ينفي تعدديته الإنسانية، ويجعل من الماضي وسيلة للهيمنة السياسية بدلاً من أن يكون مجالاً للفهم والمصالحة.

الكلمات المفتاحية: التاريخ اليهودي، الرؤية البكائية، الهسكلاه، الحركات اليهودية، الاضطهاد

Abstract:

An analysis of the Jewish relationship with their history reveals the dominance of a lachrymose perspective that framed persecution as the essence of Jewish identity. This view, which exaggerated the notion of Jews as "eternal victims," later became the foundation of Zionist thought, transforming history into political capital. Periods of prosperity and coexistence in Islamic and European societies were marginalized in favor of a continuous narrative of suffering. Even the *Haskalah* movement, which sought integration and enlightenment, was later reinterpreted as evidence of the failure of assimilation, reinforcing a discourse of isolation and separation. Scholarly critiques, such as those of Salo Baron, highlighted the danger of this one-dimensional reading that turned history into a national myth. Rather than serving as a call for justice, the memory of persecution became a tool to justify settlement and reproduce exclusion. A critical reading reveals that reducing Jewish history to tragedy denies its human diversity and transforms the past into a means of political domination.

Key words: Jewish history, lachrymose conception, Haskalah, Jewish movements persecution.

1. مقدمة:

عرف الدين اليهودي، مثل كل الديانات، عديد التقلبات واللحظات المحورية على مدى آلاف السنين. ولكن، وقبل أن نورد بعض هذه المنعرجات، وجب علينا أن نوضح أن اليهود الذين نتحدث عنهم هم أتباع النبي موسى، أي من خرج معه من مصر. فالتسميات تختلف، إذ أنهم كانوا "عبرانيين" مع الآباء، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم صاروا "بني إسرائيل"، أي أبناء يعقوب (الذي صارع الرب فصرعه)، ولكنهم لم يسموا بهذه التسمية إلا عند تواجدهم في مصر. وأخيرا أصبحوا يهودا عند العبور من مصر إلى أرض كنعان. ولكن الدخول إليها لم يكن سوى بعد وفاة النبي وخلافة يوشع له. إلا أن ازدهارهم الحقيقي لم يكن سوى مع النبي داوود (الملك داوود بالنسبة لليهود) بعد توحيد كل الأسباط. وتواصل هذا الازدهار مع النبي سليمان (الملك سليمان) الذي قام ببناء الهيكل واضعا فيه تابوت العهد. ثم، وبعد وفاة هذا الأخير انقسم أتباع النبي موسى وكونوا دولتين، شمالية وجنوبية، إسرائيل ويهوذا.

بدأت "ماساة" اليهود مع الشتات الأول على يد الآشوريين في 722 ق م، أما الشتات الثاني والشتات الثالث فكان على يد الإمبراطورية البابلية، والرابع فارسي. وكان اليهود يعودون كل مرة إلى القدس، حتى أنهم أعادوا بناء هيكل سليمان بعد خرابه الأول. ولكن الشتات الأخير حسم مصيرهم، إذ أن الثورة التي شنوها ضد الرومان فشلت، وتم تهجيرهم وتحطيم الهيكل للمرة الثانية سنة 70 ميلادي. ومنذ ذلك الحين تفرق اليهود في كل أنحاء العالم، و خلال العصور الوسطى انقسموا إلى مجموعتين، الأشكينايز، وهم من نزحوا إلى شرق أوروبا، خاصة بولونيا وروسيا، والسفارديم، أي من كانوا موجودين في شبه الجزيرة الإيبيرية (اسبانيا والبرتغال).

عامل المسلمون اليهود، عند سيطرتهم على اسبانيا سنة 711 ميلادي، معاملة جيدة، باعتبار أنهم اهل ذمة، أي أنهم تحت الحماية الإسلامية ومسؤولية الدولة. وفي مقابل ذلك كان عليهم دفع الجزية. ومع قيام الدولة الأموية تم الترحيب بهم وتشجيعهم على الإستيطان لتنشيط الاقتصاد والتجارة الخارجية. وتواصل إزدهار اليهود في اسبانيا خلال حكم الخليفة الأموي عبد الرحمان الثالث الذي جعل من قرطبة مركزا ثقافيا واقتصاديا وصار لليهود علماء فلسفة وطب وعمارة وترجمة، وعمل بعضهم كوزراء ومستشارين لدى الملوك. من هؤلاء نذكر حسداي بن شبروط ʿḤṣḏay ben Shaprut ʿḤṣḏay ben Shaprut الذي كان طبيبا وديبلوماسيا ومبعوثا للخلفاء الأمويين للدول الأجنبية. والشاعر والأديب والنحوي دوناش بن لبراط ʿDunash ben Lubbāq الذي كان من ʿDunash ben Lubbāq (الوكيل، 2010، الصفحات 65-66). وتواصل هذا الإزدهار مع ظهور "موسى الثاني" أو موسى بن ميمون ʿMoses ben Maimon (الفيلسوف اليهودي الذي سيكون له أعظم التأثير على حياة اليهود الدينية لعدة قرون مואلية. وهكذا كانت حياة اليهود في اسبانيا الإسلامية مزدهرة ومستقرة، رغم بعض الإنفلات من حين لآخر، لكن سرعان ما تعود

الأمر إلى نصابها. ولكن هذا الإزدهار لن يتواصل طويلا مع عودة السيطرة المسيحية على شبه الجزيرة الإيبيرية.

• إشكالية البحث

تتمثل إشكالية هذا البحث في التساؤل المركزي: هل يعكس التصور البكائي للتاريخ اليهودي واقع التجربة التاريخية لليهود، أم أنه بناء سردي أحادي حجب أبعاداً أخرى مثل فترات التعايش والازدهار والمشاركة الحضارية؟

ويندرج ضمن هذا التساؤل العام عدد من الأسئلة الفرعية:

1. كيف تَشكّل الوعي اليهودي حول ذاته من خلال سردية الاضطهاد والانعزال؟
2. إلى أي مدى أسهمت حركة الهسكلاه في تقديم بديل أكثر انفتاحاً للتجربة التاريخية؟
3. كيف تعامل المؤرخون اليهود والغربيون، مثل س. و. بارون، مع نقد هذه السردية الأحادية؟
4. ما حدود التوازن بين قراءة المأساة كجزء من الذاكرة الجماعية، وبين ضرورة إبراز لحظات التفاعل الإيجابي مع الآخر؟

• هدف المقال :

تحليل آليات الاضطهاد من القرون الوسطى حتى القرن الثامن عشر مع محاولة كشف حدود الروايات السائدة، ودراسة تأثير حركة التنوير اليهودية في تحويل مسار التاريخ اليهودي.

2. وضعية اليهود في أوروبا:

إن الاضطهاد المسيحي لليهود ليس بالمسألة التي نشأت في العصر الحديث، إنما تمتد جذورها إلى البدايات، بداية ظهور دين عيسى، حيث أن أصوله اليهودية لم تشفع له أمام إصرار اليهود على التخلص منه. ومن حينها، لم يشفع شيء لأبناء موسى أمام تسببهم في صلب المسيح ابن مريم. ورغم ذلك كانت هنالك فترات من "التسامح" والرخاء عرفها اليهود في ظل الإمبراطورية الرومانية قبل أن يصبح الدين المسيحي دين الإمبراطورية، ولكن، ومع اعتباره ديناً رسمياً سنة 380 ميلادي بعد مجمع نيقية الأول من خلال الإمبراطور قسطنطين، بدأت الضغوط تمارس على اليهود. فبعد أن كان الدين اليهودي ديناً مباحاً أو مشروعاً (كوليجيوم أو باللاتينية religio licita)، أصدر الإمبراطور تشريعاً جاعلاً منه "مذهباً شائناً أو شنيعاً"، حيث تم منع اليهود من الزواج من المسيحيين، بالإضافة إلى منعهم

من امتلاك العبيد مما أبعدهم عن امتلاك الأراضي والاشتغال بالفلاحة، ثم تم منعهم لاحقا من العمل في الوظائف العامة (المسيري، الطبعة الأولى 1999، صفحة 276). ورغم ذلك، لا يمكن مقارنة هذه القيود، التي يمكن اعتبارها بسيطة، أمام ما سيحدث لاحقا من هجمات تارة عفوية من الشعب وطورا بأحكام من السلط السياسية والدينية.

من بين هذه الأحداث، تبقى الهجمات التي شنها المسيحيون على اليهود أيام "الطاعون الأسود" أو "الموت الأسود" من الأحداث الأكثر رسوخا في أذهان كل مطلع على ما حدث وقتها، إذ شهدت أوروبا ما بين سنتي 1347 و1352 طاعونا تسبب في موت أكثر من ثلث سكان أوروبا. ورغم أن هذا "الموت الأسود" لحق اليهود أيضا، ولكن بنسبة أقل بكثير من المسيحيين، فإنهم أرجعوا سببه إلى غضب الرب منهم واتهموهم بتسميم الآبار فشنوا عليهم هجمة غير مسبقة خاصة في ألمانيا والإمبراطورية الرومانية وقاموا بطرد اليهود من عدة مدن (المسيري، الطبعة الأولى 1999، صفحة 286).

وبعد سيطرة المسلمين على اسبانيا، عرف اليهود أيام استقرار، وتحسنت أوضاعهم. ولكن هذه الحالة لم تدم سوى ثمانية قرون، وهي فترة التواجد الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية. ومع سقوط اسبانيا على يد المسيحيين تم طرد اليهود سنة 1492 ميلادي مع بقاء عدد منهم وتنصرهم. فتكونت مراكز يهودية جديدة، فأطلق عليهم اسم سفارديم (ספרדים سيفارديس)، نسبة إلى سفارد ספרד وهي اسبانيا بالعبرية. وقد سمي أولئك اليهود أيضا باليهود الغربيين حيث توجهوا إلى المناطق الخاضعة للحكم العثماني وإيطاليا وشمال إفريقيا. أما اليهود الشرقيين، أو الأشكيناز (אשכנזים أشكنازيم)، فهم أساسا يهود النمسا وألمانيا فقد اتجهوا إلى بولونيا نتيجة للقمع المتواصل.

ورغم أن اليهود الذين اختاروا البقاء بإسبانيا قد غيروا ديانتهم وتحولوا إلى المسيحية، فإنهم تعرضوا للملاحقات عن طريق محاكم التفتيش، وكان المسلمون الباقون أيضا قد تعرضوا لنفس اضطهاد هذه المحاكم، التي وضعت المتنصرين تحت الرقابة الشديدة للتأكد من صدق إيمانهم، وقد وضعت بأمر بابوي سنة 1471 ميلادي.

وبعد الهجرة اليهودية من اسبانيا، وتحولهم إلى العديد من الدول الأخرى، كما ذكرنا، وما سبق ذكره لا يعتبر بالشيء الجلل أمام ما سيحدث للطائفة اليهودية بأوروبا لاحقا.

1.2. الاضطهاد في أوروبا الشرقية: الروسي والبولوني:

يعود التواجد اليهودي في روسيا إلى دولة الخزر، ولكن الباحثين اختلفوا حول تاريخ ذلك، فهذا مرتبط بتهود ملكهم، وقد حدد في فترة حكم الخليفة العباسي هارون الرشيد التي امتدت من سنة 786 ميلادي إلى وفاته سنة 809 ميلادي. حيث ورد في كتاب مروج الذهب للمسعودي (283 هـ - 346 هـ / 896 م - 957 م)، حيث يقول: «وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية؛ فأما

اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه، وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد، وقد انضاف اليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم..." (المسعودي، 2005، صفحة 138). أي أن التواجد اليهودي في روسيا كان ما بين سنتي 786 و809 ميلادي حسب المراجع الإسلامية.

أما بالنسبة للمراجع اليهودية فنجد المؤرخ اليهودي يهودا هاليافي أو يهودا اللاوي ذاكرا لمسألة تهود ملك الخزر وأتباعه في كتابه "الكتاب الخزري: كتاب الرد والدليل في الدين الذليل" وأرجع إياها إلى أربعمئة سنة من تاريخ خطه لكتابه المذكور، وكان هاليافي قد وضعه سنة 1140 ميلادي، ونجد فيه قوله: "تذكرت ما قد سمعته من حجج الحبر الذي كان عند ملك الخزر الداخل في دين اليهود منذ أربع مائة سنة على ما شهد وجاء في كتاب التواريخ..." (اللاوي، 2012). أي أن الملك، وحسب رؤية هاليافي، تبنى الدين اليهودي حوالي سنة 740 ميلادي، أي قبل ما ذهب إليه المسعودي بست وأربعين سنة، وهذا ليس بالأمر الجلل، ولا يغير الشيء الكثير من غاية بحثنا، والأهم من هذا أنه يمكننا أن نعتبر بصفة عامة أنّ التواجد اليهودي في روسيا يعود إلى القرن الثامن ميلادي.

ولكن عدد اليهود لم يكن بتلك الأهمية التي أصبح عليها بعد سنة 1795 م، أي بعد التقسيمات المتتالية لبولونيا بين سنتي 1772 م و1795 م (قسمت بولونيا بين روسيا، بروسيا والنمسا سنة 1795)، فصار تقدير عدد اليهود بروسيا القيصرية حوالي مليون ونصف (1,5 مليون نسمة) وهو التعداد الأعلى لهم في كل أوروبا (levy & soljénitsyne, 2004). وأمام هذا العدد المهول، خيرت السلطات الإبقاء على يهود بولونيا المنتمين حديثا إليها في مناطق تواجدهم، وخلقت لهم ما عرف باسم "مناطق الإستيطان" תחומי-המיושב (pale of settlement) والتي تضم أجزاء من بولندا الحالية، أوكرانيا، روسيا البيضاء، لتوانيا وملدافيا، وفرضت عليهم الإقامة فيها، مانعة عليهم التحول إلى روسيا للإقامة فيها (دخول روسيا ممنوع أصلا على اليهود حتى سنة 1772).



Figure 1 the pale of settlement 1835-1917

منع حينها اليهود من السكن في المناطق الريفية، رغم أنها تمثل أغلب المناطق الروسية، فسكنوا المناطق الحضرية، حيث نجد أن بعض هذه المناطق لم يكن سكانها سوى من اليهود، مما أدى إلى العديد من الصدامات بينهم وبين جيرانهم من غير اليهود، مما تسبب مثلاً في مرسوم طردهم من كييف (kyiv) سنة 1827. وفي منتصف السنوات 1800 تم منعهم من الإقامة في مناطق تقرب للحدود الغربية للإمبراطورية بثلاثين ميلاً، بالإضافة إلى تحريم ممارسة بعض المهن عليهم. وفي سنة 1827 صدر قرار بأخذ عشرات الآلاف من الأطفال سنهم لا تتجاوز الإثني عشرة سنة من عائلاتهم وإدخالهم للخدمة العسكرية لمدة لا تقل عن الخمسة والعشرين سنة، وفي هذه الفترة تم إرغامهم على اعتناق الديانة المسيحية. وفي فترة حكم إسكندر الثاني، تحسنت، بصفة ما، أحوال اليهود في روسيا القيصرية، ولكن هذا لم يدم، إذ عند اغتياله سنة 1881 حدثت مئات المذابح بحقهم مما أدى إلى هجرة أكثر من ثلاثة ملايين يهودي، لاحقاً، إلى أمريكا (kulik).

أما في رومانيا، فقد عرف اليهود، تقريبا، نفس الأوضاع التي عاشوها في روسيا القيصرية، حيث أن أغلبهم قدم من روسيا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر. وقد منع عليهم العمل في العديد من الوظائف كالطب والبورصة (جريس، 1981، صفحة 34).

وفي بولونيا عاش اليهود منغلقيين على أنفسهم وكانت وضعيتهم شبيهة بتلك التي عاشها أقرانهم في بقية دول أوروبا الشرقية وروسيا القيصرية، حيث ساهم عزلهم في مناطق خاصة بهم، أو ذات أغلبية من السكان اليهود، إلى انكماشهم على أنفسهم، وسيطرة الحاخامات، أو السلطة الدينية التي كان من مهامها جباية الضرائب من منظورها لصالح السلط الحاكمة.

2.2. الاضطهاد غرب أوروبا: فرنسا، ألمانيا وإيطاليا

1.2.2. فرنسا:

يمكن اعتبار عهد حكم شارلمان¹ زمن ازدهار اليهود في فرنسا، حيث أصبحوا تحت حمايته الشخصية و"سيطروا على مقاليد التجارة وكان من من يلحق باليهودي أي أذى ينزل به أشد العقاب" (الوكيل، 2010، الصفحات 25-27).

ولكن هذه البحبوحة لم تدم، إذ، ومع تولي هوغ كابيت Hugues Capet عرش المملكة الفرنسية، التهب شعور العداء تجاه اليهود، فقامت عديد الموجات من الاضطهاد، حيث يطلب من اليهود أن

¹ شارلمان (Charlemagne) (742-814): هو أهم حاكم للسلالة الثانية الفرنكية والتي أعطاها اسمه "الكارولنجيين"

Encyclopédie Universalis, Charlemagne (742-814), Robert Folz, le 31-07-2024 à 19h29.

[Biographie de CHARLEMAGNE \(742-814\) - Encyclopædia Universalis](#)

يعمدوا (أن يصبحوا مسيحيين) أو يتم ترحيلهم أو قتلهم. وتواصل هذا الإضطهاد مع الحروب الصليبية الأولى والثانية. وفي سنة 1179 تنامي شعور العداء تجاه اليهود وتصديق الملك فيليب أغسطس لشائعات قيام اليهود بقتل الأطفال المسيحيين واستعمال دماءهم في صنع فطائر عيد الفصح، فقام بمصادرة أملاكهم وأصدر مرسوما سنة 1182 بطردهم وحول معابدهم إلى كنائس. إلى أن تم طردهم للمرة الثانية من فرنسا في 1285 ميلادي على يد الملك فيليب الرابع.

وبعد حرب المائة عام، وبعد تحرير فرنسا من حكم التاج البريطاني، ومع هجرة اليهود من اسبانيا، تكونت عديد التجمعات اليهودية في عديد المدن الفرنسية، لعل أهمها مدينة بوردو. هؤلاء، كان أغلبهم من المارانو Marranos (جريس، 1981، صفحة 15)²، أي اليهود المتنصرين، "حيث تمتع أعضاء الجماعة بمكانة اقتصادية عالية، من خلال تجارتهم الدولية واحترافهم للأعمال البنكية، كما كانوا يمتلكون رؤوس أموال كبيرة نسبيا وسفنا تجارية" (الوكيل، 2010، صفحة 53). عرفت الجماعات اليهودية في فرنسا، في هذه الفترة، بعض محاولات ترحيلهم بقرارات ملكية، لكن كان برلمان بوردو في كل مرة يلغي هذه القرارات. إلى أن اندلعت الثورة الفرنسية، وكان من أهم نتائجها منح اليهود حقوقا مدنية كاملة كباقي المواطنين، وإقرار المساواة بين الأديان.

2.2.2. ألمانيا

بدأت المعاناة اليهودية في ألمانيا خصوصا مع دعوة البابا "أوربان الثاني" Urban II إلى قيام الحملة الصليبية الأولى لتحرير القدس من الحكم الإسلامي، وبما أن رجال الدين المسيحيين دعوا العامة للمشاركة في هذه الحروب وجعلوا منها مخلصا من الذنوب وفرصة للحصول على الغفران، فقد تحول سخط المحاربين إلى اليهود، باعتبارهم "العدو الأول" لهم بما أنهم قتلوا المسيح. لذلك قرروا البدء بتطهير أوروبا من أتباع موسى، وكان يتم تخييرهم بين التنصر أو الموت.

ورغم أن اليهود تمتعوا بحماية السلطة الحاكمة، بعد الحملة الصليبية الأولى، إلى درجة أن أطلق عليهم مصطلح "أقنان البلاط" سنة 1157 ميلادي، إلا أن حمايتهم لم تكن مضمونة، إذ أن اشتغالهم بالربا ألب عليهم الجماهير مما أدى إلى سعي الكنيسة إلى محاربة هذا "المرض اليهودي"، أي الربا، "وعقد المجمع اللاتراني الرابع عام 1215، وهو المجلس الذي حرم الربا وفرض على اليهود ارتداء زي خاص بهم وتعليق الشارة اليهودية" (المسيري، الطبعة الأولى 1999، صفحة 326). ولكن ومع انطلاق الحملة الثانية، وحتى الحملة الثالثة من الحروب الصليبية، لم ينجو اليهود من الإضطهاد المسيحي، فرغم سعي بعضهم رجال الدين المسيحيين إلى حمايتهم وما سعت إليه السلطة الحاكمة مجازاة لاعتدال بعض هؤلاء الأساقفة، انتشر لدى العامة شعور "بأن اليهود جنس منبوذ أعداء الرب

² المارانو: "اليهود المتنصرين (أنوسيم Marranos) الذين كانوا قد أجبروا على اعتناق المسيحية، ففعلوا ذلك ظاهريا، ولكنهم استمروا يؤمنون بيهوديتهم باطنيا، وينقلونها إلى أبنائهم من بعدهم."

قتلة المسيح وأعداء الشيطان، وانتشرت بينهم شائعة تدنيس القربان المقدس وتهمة الدم، وتعرضت الطوائف اليهودية في المقاطعات والدوقيات الألمانية لسلسلة من موجات العنف الدموي.... من ذلك أن حادثة قتل وقعت في "مقاطعة" بادن – Baden عام 1235 م ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود، فأدى ذلك إلى حدوث أحداث عنف دموي راح ضحيته الكثير من اليهود ما بين قتل وجريح. وفي عام 1243 م حرق جميع اليهود سكان مقاطعة "بيرلitz – Berlitz" القريبة من برلين بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبز القربان المقدس وفي عام 1283 م أثرت في مقاطعة "مينز" تهمة الدم واتهم اليهود بذبح أطفال المسيحيين لاستخدامه في عمل فطيرة عيد الفصح..... وفي نفس العام (أي 1298 م) اندلعت أعمال القتل ضد اليهود في مقاطعة "ورزبرج – Wurrzburg"، حيث تزعم البارون "رندفلشخ Rindfleisch" جماعة من المسيحيين أقسموا على قتل اليهود، اغارت تلك الجماعة على الطوائف اليهودية في دوقيات والمقاطعات الشرقية الألمانية، وقتلت ما يقارب من 100000 (مائة ألف) ومائة وأربعين طائفة يهودية وهدمت معابدهم (الوكيل، 2010، الصفحات 171-172).

تواصل وضع اليهود في ألمانيا بين محاولة حمايتهم بالقانون (السلطة) وبين سخط العامة الذين لم يضيعوا أي فرصة للانقضاض عليهم، خاصة في فترات الصراع على عرش المملكة بين مختلف الملوك، خاصة مع تفشي "الموت الأسود"، وانشار الشائعات حول قيام اليهود بنشر هذا الطاعون. بالإضافة إلى دعوة القس "مارتن لوثر" إلى طردهم بعد أن فشل في تحويلهم إلى البروتستانتية. ومع سيطرة هذا المذهب على أغلب الدوقيات والمقاطعات الألمانية في القرن السادس عشر، قوض ما تبقى من سلطة الإمبراطور وتراجعت قوة السلطة المركزية، فتم عزل اليهود في مناطق السيطرة اللوثرية في غيتوات وطردها من عديد المناطق. وكان وجودهم مرتبطا بدورهم الاقتصادي داخل هذه المقاطعات نظرا لحاجة حكامها لإعمارها. فتم منح اليهود العديد من الحقوق المدنية بداية من القرن السابع عشر ميلادي (القرن 17 ميلادي).

3.2.2 إيطاليا:

يعود التواجد اليهودي في الأراضي الرومانية (إيطاليا) إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وازداد عددهم عند سبي القائد الروماني "تيتوس" لبعضهم بعد تحطيم الهيكل الثاني سنة 70 ميلادي. وقد كانت حياتهم في بداية تواجدهم هيئة، إلى أن تبنت الإمبراطورية الرومانية المسيحية كدين في القرن الرابع ميلادي. وتباين وضعهم بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية، وسيطرة بعض ممالك مختلفة الأراضي الإيطالية المقسمة. وكان وضعهم عامة مرتبط بموقف الباباوات منهم، فتراوح بين محاولة حمايتهم ومنحهم بعض الحقوق أو فرض رقابة شديدة عليهم واجبارهم على اعتناق المسيحية.

وكان مفهوم الغيتو قد عرف معناه الحالي في البندقية، حيث أصدر مجلس المدينة أمرا يجبر اليهود على السكن في حي مغلق خاص بهم سنة 1516 ميلادي، وتم تحديد عدد الزيجات بينهم (جريس، 1981، صفحة 14).

3.2. الوضع في بريطانيا وهولندا:

1.3.2. هولندا:

تم إعلان جمهورية هولندا الاتحادية سنة 1581 م بعد أن كانت تمثل ولاية من الولايات الشمالية من الإمبراطورية الإسبانية رفقة بلجيكا ولوكسمبورغ. ومقارنة بدول شرق ووسط أوروبا، فقد حظي اليهود في هولندا بمعاملة حسنة للغاية. حيث أن بداية تواجدهم كانت مع سيطرة المسيحيين البروتستانت على اسبانيا، وظهر محاكم التفتيش، فكان أغلبهم من اليهود المارانو (Marranes) أي اليهود السفارديم) الفارين من الإضطهاد في إسبانيا والبرتغال. وقد متعوا بحريتهم في ممارسة شعائهم وذلك رغم عدم تقبل الكنيسة البروتستانتية، وقد حل هذا الإشكال بإصدار قانون سنة 1619 ميلادي يحث على التسامح الديني ووضع قرار أمر البت في تواجد اليهود وحقوقهم المدنية بين أيدي حكام المدن (الوكيل، 2010، صفحة 406)، أي السلطة العلمانية.

مع هذا القانون، ترسخ التواجد اليهودي في أمستردام، ولكن دون حقوق سياسية. وقد نشط اليهود مع نهاية القرن السادس عشر في حركة التجارة الدولية لهولندا، فتميزوا في المجالين الاقتصادي والاجتماعي إلى درجة تسمية مدينة أمستردام "القدس الثانية" (المسيري، الطبعة الأولى 1999، صفحة 322). وساهموا في تطور الاقتصاد الهولندي، وصار لها نفوذ استعماري في العديد من المناطق وفي أغلب القارات، من إفريقيا (جنوب إفريقيا)، آسيا (خاصة جزر الهند الغربية) وأمريكا.

واشغل اليهود في كل المجالات، كتجارة الرقيق، الطب، وصناعات التبغ والطباعة والماس ونشأت طبقة من المثقفين، لعل أبرزهم الفيلسوفين باروخ سبينوزا Baruch Spinoza و إسحاق أوربيو دي كاسترو Isaac Orobio de Castro والكاتب مانسي بن إسرائيل Menasseh ben Israel (المسيري، الطبعة الأولى 1999، صفحة 332).

ورغم تدهور الوضع الاقتصادي الهولندي مع نهاية القرن الثامن عشر، إثر دخولها في حرب ضد فرنسا وإنجلترا، إلا أن البرلمان الهولندي أقر في 2 سبتمبر 1796 منح اليهود حقوق المواطنة الكاملة (الوكيل، 2010، صفحة 424).

2.3.2. بريطانيا:

يعود التواجد اليهودي في إنجلترا إلى القرن الحادي عشر ميلادي (ق 11 م)، حيث جلبهم إلى إنجلترا وليام الأول إثر الغزو النورماندي سنة 1066 ميلادي. وقد عرفوا قرنين من الازدهار والطمأنينة

بعد حماية الملوك شخصيا لهم. إلى أن تم طردهم نهائيا سنة 1290 ميلادي بعد أن قرر رجال الكنيسة والبارونات إعطاء الملك إدوار الأول عشر الأملاك المنقولة إن هو طردهم (المسيري، الطبعة الأولى 1999، الصفحات 317-318).

عاد اليهود في أواسط القرن السابع عشر، حوالي سنة 1656، إلى إنجلترا، بعد أن ازدهر المذهب البيوريتاني puritanism أو التطهيري، وهو مذهب مسيحي بروتستانتي يدعو إلى إلغاء الرتب الكهنوتية والإيمان بالكتاب المقدس كمصدر وحيد للعقيدة الدينية، ويدعو إلى تطبيق العبادات في الحياة كلها وليس فقط في أوقات وأماكن معينة. وساد جو استرجاعي يستند على عودة المسيح وظهر فكر ماسيحياني (ماسيحياني) دعا إلى "ضرورة تواجد اليهود في كل أنحاء الأرض وضرورة هدايتهم، أي تنصيرهم كشرط أساسي للخلاص." (المسيري، الطبعة الأولى 1999، الصفحات 318-319) وساعدت كل هذه الظروف على اكتساب اليهود لكل حقوق المواطن الإنجليزي وتم إلغاء القسم المسيحي للدخول إلى البرلمان، فبلغ عدد اليهود آنذاك حوالي 60000 (ستون ألفا) (الوكيل، 2010، صفحة 218).³

3. التيارات اليهودية في العصر الحديث

1.3. اليهودية الربانية (التقليدية):

اليهودية الربانية (أيضا: الحاخامية، التلمودية، الكلاسيكية)، هي الشكل اليهودي الذي يرى بأن الرب أعطى النبي موسى قانونين، وهما التوراة، أي القانون المكتوب، بالإضافة إلى المشنا، أي القانون الشفوي، وقد اعتمدوا فيما ذهبوا إليه على ما ورد في التوراة: "وقال الرب لموسى اصعد إليّ إلى الجبل وكن هناك. فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم" سفر الخروج 12:24.⁴ وتم تناقل هذه القوانين شفويا على مر السنين.

وفي فترة حكم السلالة الحشمونية (140 ق م-37 ق م)، انقسم المجتمع اليهودي إلى قسمين، نتيجة الخلافات السياسية-الدينية، فسمي الكهنة وتابعوهم بالصدوقيين קִהָּנִים وهم من يؤمنون بالتوراة المكتوبة فقط، بينما سمي الربيون وأتباعهم بالفارسيين סִנְטִינִים وهم من يضيفون إلى

³ بلغ عدد اليهود في إنجلترا بعد الحرب العالمية الأولى حوالي 300.000 (ثلاثمائة ألف)، على إثر موجات الهجرة الكبرى من القيصريّة الروسية.

⁴ " יְבִיאֵמֶר יְהוָה אֶל-מֹשֶׁה، עֲלֶה אֵלַי הָהָרָה--וְהִגֵּדָה-לְךָ אֶת-לַחֹת הָאֲבֹנִים וְהַתּוֹרָה וְהַמִּצְוֹת، אֲשֶׁר פָּצַמְתִּי לְהוֹרֹתָם. "שְׁמוֹת 12:24

« L'Éternel dit à Moïse : "Monte vers moi, sur la montagne et y demeure : je veux te donner les tables de pierre, la Torah et la Mitsvah, que j'ai écrits pour leur instruction." » Exode 24 :12

إيمانهم بالتوراة المكتوبة إيماناً آخر بالتوراة الشفوية. ولكن ومع تدمير الهيكل الثاني على يد الرومان سنة 70 ميلادي، وتشيتت اليهود وسيادة الفوضى التي اعترت البقية الباقية، وخاصة القضاء تقريباً على الصدوقيين، قرر عدد من الحاخامات تحرير هذه التوراة الشفوية، وهذا ما قام به بعضهم تحت إشراف الربّي يهودا هناسي أو يهودا الأمير תלמידין سنة 200 ميلادي (المسيحي، الطبعة الأولى 1999، صفحة 126) متى قموا بتحويلها إلى نص مكتوب، أي المشناه תלמוד.

في القرنين الخامس والسادس تاليا، تمت كتابة التلمود תלמוד: الأورشليمي والبابلي، وهما يحويان نفس المشناه مع جملة ٤٦٧٧ مختلفة، وهذه الأخيرة تفسر للأولى. ثم تتالت كتبت حول التلمود أدبيات ربنية عدة، والتي صارت تمثل مذهب اليهودية الربانية، أي الهالاخا הלכה (مجموعة القوانين التي على اليهودي اتباعها). وبالتالي فإن القوانين التي يجب على اليهودي الحق اتباعها، بالنسبة لليهود الحاخاميين هي التوراة المكتوبة والتلمود مع كل ما يحيط به (أي التوراة الشفوية).

من أبرز أعلام اليهودية الربانية نجد الربّي موسى بن ميمون משה בן מימון، واضع كتاب مشناه تורה תורה אושר أي فسر المشناه إلى درجة أن أطلق على الكتاب "يد حزقاه" היד חזקה أي اليد الشديدة. وقد رفض بن ميمون مبدأ العودة إلى أرض صهيون، أي عودة اليهود من تلقاء أنفسهم، وورد ذلك في رسالته إلى يهود اليمن.

أما في العصر الحديث فإن تواجد اليهود في غيتوات des ghettos منعزلين عن مواطني الدول التي سكنوها، جعل سلطة الحاخامات تتعاظم فبسطوا سيطرتهم على كافة مجالات الحياة اليهودية. ويظهر هذا الأمر جلياً في بولونيا عند اعتراف السلطة بهم كطائفة مستقلة سنة 1551 فصاروا يديرون شؤونهم بصفة ذاتية، وهذا ما قوى السلطة الحاخامية بين اليهود، وصار لهم مؤسسات خاصة سميت "بالكاهاال" קהילה اعنتت وسيطرت على كل الجوانب الحياتية، فكانت من مهامها جباية الضرائب من اليهود لصالح السلطة الحاكمة، وتنفيذ الأحكام التي تصدر من الحاخامات وفقاً للشريعة اليهودية. وكانت القرارات مهما كانت أهميتها ترجع بالنظر إلى الحاخامات، فمن أتفه الأمور إلى أخطرها، ما من أحد يتخذ فيها قراراً غير السلطة التلمودية. ثم ألغيت هذه الامتيازات التي منحت لصالح زعماء الطائفة اليهودية سنة 1765 عندما زال سبب وجودها، أي جباية الضرائب من اليهود. ولكنها تركت أثراً عميقاً داخل المجتمع اليهودي، حيث سيطر الطابع الديني الحاخامي على حياتهم (جريس، 1981، الصفحات 16-17).

هذه السيطرة وما تمثله بالنسبة للرعية من قهر، إذ أن المؤسسة الدينية كانت تمثل السلطة التي تجبي الضرائب منهم، وصار الأعيان منهم يعيشون في أهبّة خلافاً لبقية اليهود، أدت إلى ظهور حركات عدة كرد فعل، مثل الحركة الحسيدية والحركات الماشيحانية. وقد تلقت اليهودية الربانية ضربة قاصمة في القرنين الثمان عشر والتاسع عشر ميلادي، عند ظهور حركة التنوير اليهودية ההשכלה والتي دعا روادها إلى ترك الغيتوات والاندماج في المجتمعات التي يعيشون بينها.

ولكن، بعد قصص ظهر اليهودية الحاخامية، ظهرت يهودية حملت عنها المشعل، وهي اليهودية الأرثوذكسية. وقد تزعمها الحاخام سمسون رفاييل هيرش שמסון רפאיל הירש، وهي فرقة ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر. ويمكن تفسير الفكر الأرثوذكسي بالإيمان بالعودة "الشخصية للمسيح، بمعنى أن اليهود يجب أن ينتظروا ويصبروا إلى أن يأتي المسيح بإذن من الله، وهذا الصبر في المنفى ليس إلا عقابا وتكفيرا عن الذنوب، لذلك لا يجب على اليهودي العمل على التعجيل بحلول النهاية وعودة المسيح (المسيحي، الطبعة الأولى 1999، الصفحات 384-388).

2.3. الحسيديم أو الحسيدوت:

قبل الخوض في تعريف وتاريخ ظهوره حركة الحسيديم، وجب علينا أولا تحديد مفهوم كلمة "حسيديم". فالكلمة חסידים مشتقة من الجذر العبري חסד (حسد) ويعني الإحسان وفعل الخير (حسن، 1994، صفحة 5). وقد وردت الكلمة في العهد القديم وتعني "الرجل التقي الثابت على إخلاصه للإله وإيمانه به"، ثم استخدمت لوصف مساندي التمرد الحشموني كانت من صفاتهم التقوى الشديدة والورع الديني (المسيحي، الطبعة الأولى 1999، صفحة 352).

وقد أطلقت الكلمة، حسيديم أو حسيدوت على حركة يهودية ظهرت في العصر الحديث، أي القرن الثامن عشر، في ألمانيا على يد الربّي إسرائيل بن أليعازر רבי ישראל בן אליעזר (1698-1760)، وأطلق عليه اسم "بعل شم طوف" בעל שם טוף أي "السيد ذو الاسم الحسن"، ويقصد بالاسم هنا إسم الرب، وقد اكتسبه عندما عمل كعالم أو طبيب متجول بين المدن والقرى، وتكون مداواة بالرقى والتمايم والأدعية. وقد اشتهر كثيرا إلى درجة أن الناس من اليهود وغير اليهود كانوا يقصدونه ليتنبأ لهم بالمستقبل مستعملا كتب الكابالاه، فضنوا أنه يتميز عن "البعل شم" الآخرين فأضافوا إلى اسمه كلمة "توف" وتعني الطيب (حسن، 1994، الصفحات 17-18).

نشأت الحركة الحسيدية في مجتمع يهودي منعزل، سيطرت عليه مؤسسة الكاهال المتمثلة في الحاخامات وأغنيائهم. وكان الحاخامات في هذه الفترة منشغلون عن مآسي عامة اليهود الفقراء بقراءة التلمود وتفسيره والخوض في الجدالات حول أحكامه، إلى درجة أن خطاباتهم كانت غالبا تتمحور حول المناسبة التي يتحدثون عنها، ولا يشيرون ولو تلميحاً إلى وضعية الإنسان اليهودي العادي. وكانت الخطبة لا تحتوي سوى على مسائل دينية وجدلية لا تهم اليهودي (مفيد، 2021).

هذه الأمور كونت هوة بين المؤسسة الدينية الغنية المنشغلة عن هموم اليهود بجدالات عقيمة وبدراسة التلمود وتفسيراته، والتخايم حول الأحكام التي لا تمت للحياة الواقعية بشيء، وبين اليهودي العادي. وكان على الأخير اتباع هذه الأحكام المتشددة، ولا يحق له نقدها أو رفضها، إذ أن هذا قد يؤدي به إلى الطرد الديني. وهذا ما أصاب أغلبهم بالكبت والضغط.

هذا الكبت الذي عاشه اليهود في القرون الوسطى ثم في بداية العصر الحديث أدى بدوره إلى ظهور الحركات المشيخانية التي خلخلت عروش الحركة التلمودية. وكان عدد أتباع كل مشيخ عندما يعلن عن نفسه يعد بالآلاف، بل عشرات الآلاف. وكان كل مرة تفشل فيها "التجربة المشيخانية"، يصاب عامة اليهود من الأتباع بالإحباط وعدم القدرة على تغيير واقعهم الأليم. وهنا تظهر الحركة الحسيدية "كمخلص" من هذا التهميش وسيطرة الحاخامات، بالإضافة إلى الجمود العقائدي المعتمد كليا على نصوص التلمود وشروحها وأقوال الربيين فيها الشيء الذي أدى إلى فراغ روحي.

ولسد ثغرة الفراغ الروحي الذي يعيشه اليهود حينها، قامت الحسيدية على مبادئ أخرى، ألا وهي إعتبار الإيمان قائما على السعادة والوجد الإلهي. فألغت كل واسطة بين المتعبد وربّه، وأكدوا على "الفرح والبهجة حيال الحضور الكلي للإله... ويعترف الحاسيديم بحضور الإله في أبسط أفعال الجسم، ويزاولون "العبادة الجسمانية" (أبودا با جشميوت avodah ba-gashmiyut)، أي الثناء على الإله، لا في الصلوات أو في الشعائر "المقدسة" فحسب، بل كذلك في خضم الأفعال الأكثر دنيوية كالجماع الجنسي أو الأكل أو النوم. فالنية هي مناط الأمور جميعا..... وعلى هذا النحو، أقبل الحاسيديم على ألوان الرقص والغناء، بل إنهم زاولوا الدوران على شاكلة الدراويش الدوارين (الباد و يوان ، 2018 ، صفحة 408).

أثارت الحركة الحسيدية، رغم الإنتشار الذي لاقتّه في أوساط اليهود، سخط الحاخامات، حيث رأوا فيها تهديدا لليهودية التقليدية التي توارثوها منذ آلاف السنين. فشكّلت حركة معارضة لهم سميت "بالمُتناغديم" ومفرده "متناغد" أي معارض. وأدر الحاخام الأكبر إياهو بن سلومون سنة 1781 قرارا ثانيا⁵ بطرد الحسديم من اليهودية، واحتوى هذا القرار على مهاجمة واضحة وعلنية لهم، إذ دعى عامة اليهود إلى ملاحقتهم والتنكيل بهم وتحطيم ممتلكاتهم... (حسن، 1994، صفحة 36).

ليس التلموديون فقط من حارب الحركة الحسيدية ونكل بقادتها وأتباعها، بل إن رواد الهسكلاه، حركة التنوير اليهودية، أيضا كانوا معادين لهم، واعتبروهم دعاة للتخلف وسببا للرجوع باليهود إلى الوراء.

3.3. الماشيخانية:

عرف اليهود في العديد من مراحل تواجدهم انكماشات واضطهادات عدة، لا سيما عند طردهم من اسبانيا بعد سيطرة المسيحيين عليها، وشتاتهم الجديد في الإمبراطورية العثمانية ودول عدة من أوروبا وشمال إفريقيا. وبعد أن نصب أتباع النبي عيسى محاكم تفتيش دينية لمراقبة المتنصرين منهم ولمعاقبة من تثبت ممارسته السرية للشعائر اليهودية. نظيف إلى ذلك سيطرة المؤسسة الكهنوتية على

⁵ صدر الطرد الأول سنة 1772 م، واعتبرت فيه الحركة الحسيدية حركة مارقة عن اليهودية.

الحياة الخاصة والعامة لليهود في القرون الوسطى وبداية العصر الحديث. هذه المؤسسة التي كانت، في أغلب الأحيان، تمثل السلط الحاكمة، إذ أنها كانت من مهامها جبي الضرائب من نظرائها. بالإضافة إلى انغماسها في المجادلات والمناظرات العقيدة حول التفسيرات والشروحات التلمودية، وانشغالها عن هموم اليهودي العادي. نظيف أيضا المذابح التي تعرض لها أتباع النبي موسى خاصة في أوروبا، وكنا قد ذكرنا في بداية هذا الفصل بعض تلك الانتهاكات التي عانوا منها.

كل ما ذكرناه أدى إلى إحساس اليهودي باغتراب شديد، وفراغ روحي دفع به إلى البحث عن أي قصة يمكنها تغيير حياته نحو الأفضل. ومن هنا ظهرت بعض الحركات التي صورت له أنها مصدر خلاصه. منها الحركة الحسيدية. ولكن أهمها الحركات الماشيحانية (ميشيحيوت) التي تعتبر قديمة العهد في التقاليد اليهودية، ويرجعها بعض الباحثين إلى أيام المملكة الثانية، وتظهر هذه الحركات غالبا عندما يجد اليهود أنفسهم في ضائقة (جريس، 1981، صفحة 20). ولكن قبل الخوض في بعض هذه التجارب الماشيحانية (المسيائية)، وجب علينا تفسير الكلمة.

المشيح משיח (mashiah) هي كلمة عبرية تعني الممسوح بالزيت المقدس، وهي عادة قديمة، إذ يتم مسح رؤوس الملوك والكهنة. والمشيح משיח، حسب الرواية التوراتية هو ذلك اليهودي من سلالة داوود، الذي سيخلص اليهود من العبودية ويعيد لهم عصرهم الذهبي.⁶

أبو عيسى الأصفهاني:

الحركات الماشيحانية ليست بالجديدة في تاريخ اليهود، فقد كانت أهمها تلك التي ظهرت مع إسحاق بن يعقوب الأصفهاني (أبو عيسى الأصفهاني) "יִצְחָק בֶּן יַעֲקֹב אֲשֶׁף אֲשֶׁף" (يتسحاق بن يعكوف عوفادياه أبو عيسى). عاش في بلاد فارس حوالي القرن الثامن ميلادي. وقد أعلن أنه المشيخ سنة 755 ميلادي. قاد أبو عيسى الأصفهاني ثورة موجهة ضد الجاخامات وضد التلمود فأدخل العديد من الشعائر والممارسات الجديدة كأن أضاف أربع صلوات للثلاث المتعارف عليها بين اليهود، وحرّم على المتزوجين الطلاق، كما منع أيضا أكل اللحم وشرب الخمر والنواح على هدم الهيكل الثاني. وقد تبعه الكثير من يهود فارس.

بالإضافة إلى ثورته ضد المؤسسة الجاخامية، قاد "المشيخ الأصفهاني" تمردا ضد الحكم العباسي قتل على إثرها، ولكن أتباعه كعادتهم حين يفشل "المشيخ" في تنفيذ وعوده لهم بخلاصهم وإعادة مجدهم، أعلنوا أنه لم يقتل، إنما اختفى في كهف (المسيري، الطبعة الأولى 1999، صفحة 107).

شبتاي تسفي:

⁶ Messiah, Encyclopédie Britannica, le 09-08-2024 à 11h29.

<https://www.britannica.com/topic/messiah-religion>

ومن الحركات المשיحانية، التالية، تلك التي كان محورها شبتاي تسفي זצ"ל (1626-1675)، وكان ذلك في القرن السابع عشر (القرن 17م) (rosner, 1980)، وهي أهمها. وقد بدأت بين يهود إزمير في تركيا عندما أعلن شبتاي أنه "المسيح المخلص". وقد عاش في فترة صعبة على اليهود وهي نهاية حرب الثلاثين عاما التي أدت إلى تمركز السلطة في أيادي الدول القومية مما تسبب في الاستغناء عن اليهود كجماعة وظيفية، وكذلك ثورة بودقان شميلنيكي Bodgan Chmielnicki (1648-1658) التي جلبت الفقر لليهود بولونيا، أكبر تجمع لهم في أوروبا.

ومن الغريب أن كتاب الزوهار⁷ كان تنبأ، حسب تفسيرات البعض، بوصول المשיح سنة 1648م، وفي نفس هذه السنة أعلن تسفي أنه الماشيح ونطق باسم الإله יהוה الذي لا ينطقه اليهود لأنه أمر محرم في الشريعة اليهودية، إذ لا ينطقه سوى كبير الأخبار في قدس الأقداس في الهيكل يوم عيد الفصح (وهي شعيرة معطلة لدى اليهود إلى يومنا هذا)، ولكن الحاخامات رفضوا الإعتراف به وطرد من إزمير. وذهب الماشيح إلى فلسطين سنة 1662 أين أعلن اليهودي نيثان الغزاوي بأنه المسيح بن يوسف المرافق للمسيح بن داوود الصادق الموعود، وقام ببعث الرسائل إلى كافة اليهود في العلم مبشرا لهم بمجيء الماشيح فأمن أغلبهم به واستبشروا بقدومه. ولكن شبتاي أعلن أنه سيخلع السلطان العثماني وتوجه إلى إسطنبول سنة 1666 أين ألقى القبض عليه، وتمت محاكمته مخيرين إياه بين الموت واعتناق الإسلام، فصار "المسيح" مسلما (المسيحي، اليهود واليهودية والصهيونية الموسوعة الموجزة، 2006).

الحركة الفرنكية:

الحركة الماشيحانية الأخيرة التي سنوردها هنا، هي الحركة الفرنكية، نسبة إلى مؤسسها اليهودي المتنصر يعقوب فرنك זצ"ל (1726-1791)، ولكنه كان يظهر مسيحيته ويمارس الشعائر اليهودية، على طريقة يهود المارانو، ودعا أتباعه إلى الاقتداء بصنيعه، حيث أنهم امتنعوا عن حلق سوافهم، وواصلوا ارتداء الثياب الخاصة بهم، وواصلوا تحريم أكل لحم الخنزير، بالإضافة إلى المحافظة على استراحة يوم السبت. ثم طالبوا بإعطائهم رقعة أرض لتأسيس حياتهم الجديدة، وهذه الرقعة في بولندا، إذ أن أرض الخلاص بالنسبة للفرنكية هي بولندا وليست صهيون (المسيحي، اليهود واليهودية والصهيونية الموسوعة الموجزة، 2006، صفحة 116).

قامت الحركة الفرنكية على تنصير اليهود ظاهريا مع المحافظة على بعض شعائرتهم اليهودية، بالإضافة إلى الإبقاء عليهم في بولندا، وهي ما يتطابق مع ما ذهبت إليه حركة الهسكلاه، التي دعت إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم مع ظهور الدولة القومية والعقد الاجتماعي.

⁷ كتاب الزوهار 770 771 هو أهم كتاب كابالي وهي معتقدات وشروحات روحانية تعنى بتفسير العلاقة بين الله الأبدي والكون المتهالك والمحدود.

4. الهسكالاه:

1.4. الوضع الثقافي العام في أوروبا في العصر الحديث:

عرفت أوروبا بداية من القرن الرابع عشر ميلادي وإلى حدود القرن السابع عشر حركة تغيير كبيرة عرفت بعصر النهضة Rinascimento، كانت بدايتها في إيطاليا. شملت هذه الحركة العديد من الثورات، وقد قسمها الباحث نور الدين حاطوم في كتابه "تاريخ عصر النهضة الأوروبية" إلى خمس مجالات، وهي الثورة الفكرية والدينية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية. ففي المجال الفكري سمي روادها بالإنسانيين Humanistes، حيث أنهم ركزوا على قيمة الإنسان، سواء كان فردا أو مجموعة، وفضلوا الاعتماد على العقل والاستدلال عوض الأخذ بالمذاهب الثابتة ككوبرنيك وليونارد دا فنشي. أما في المجال الديني فنلاحظ انبثاق مفهوم جديد وهو حرية الضمير، فبعد أن كان الدين حدثا اجتماعيا يخص الجماعة، صار حدثا فرديا. فكانت المحاولات لإعادة الدين لنقاوته الأولى، وذلك بالسعي إلى إلغاء الشروحات والتفسيرات والعودة إلى النص الأول والنظر فيه. والحث الديني الأهم هو طباعة الإنجيل باللغات القومية وتسهيل وصول كل الأيدي إليه. أما في المجال الأخلاقي فقد نظر رواد الحركة إلى منتوجات أفلاطون Platon وسيسرون Cicéron ليس كمصدر للجمال أو بحثا عن طلاوة في الأسلوب فقط، إنما كمنهج حياة. فبالنسبة لرابليه François Rabelais فالحركة الإنسانية كانت أخلاقا وعلمًا وجمالًا في آن. والفكرة الأساسية هنا هي أن الإنسان صالح بطبعه، وعليه أن يتبع قوانينه الطبيعية ليكون خيرًا.

إلى جانب المجالات الدينية والأخلاقية والفكرية، فإننا نلاحظ التجديد في القرن السادس عشر ميلادي في المجال السياسي، وذلك بتشكيل الدول القومية فظهر مفهوم الأمة والحدود الطبيعية، بالإضافة إلى اللغات المحلية التي قامت مقام اللاتينية والشعور القومي. أما في الجانب الاقتصادي فقد نشطت التجارة البحرية إثر الاكتشافات الجديدة، وسارت ثراء الدولة يقاس بقيمة الذهب الذي تمتلكه، مما أدى إلى حركة استعمارية كبيرة (حاطوم، 1985، الصفحات 6-14).

بينما كانت إيطاليا مصدر حركة النهضة الأوروبية، فإن بريطانيا كانت مصدر الثورة الصناعية بداية من القرن الثامن عشر ميلادي. والثورة الصناعية هي عبارة عن سلسلة من التغييرات في طرق الصناعة، نقلت أوروبا من النشاط الحرفي اليدوي والزراعة "البداية" إلى أساليب جديدة في العمل والمعيشة تعتمد أساسا على المكننة (هيز، 1950، صفحة 12).

في نفس فترة الثورة الصناعية، انبثقت ثورة أخرى في أوروبا، ثورة فكرية، هذه المرة قادتها فرنسا، سميت بعصر التنوير، وقد قوضت أفكار الفلاسفة خلالها السلطة الملكية وسلطة الكنيسة،

وذلك من خلال الاطلاع على الفلسفة الإغريقية، الشيء الذي لم يكن ممكنا من دون ترجمات ابن رشد مثلا. وقد قدم مفكرو "عصر المنطق" مجموعة من الأفكار التي تعتمد على سيادة العقل والأدلة أساسا للمعرفة، وأيضا على الحرية والتسامح وفصل الكنيسة عن الدولة، والحكومة الدستورية. ويظهر اعتماد فلاسفة الحركة على العقل والدعوة إلى التخلي عن العقائد الثابتة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ما قاله كانط⁸ للإجابة عن سؤال: ما هو التنوير؟ "إنه خروج الإنسان من مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن النضج أو سن الرشد" وقد عرف القصور العقلي على أنه "التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتخاذ أي قرار دون استشارة الشخص الوصي علينا".

ومن أهم الأفكار التي تبلورت بشكل جدي خلال عصر التنوير ولقيت انتشارا واسعا، العقد الاجتماعي، الذي مثل زبدة أفكار جون لوك John Locke، هوبز Thomas Hobbes وجون جاك روسو Jean Jacques Rousseau. والعقد الاجتماعي حسب الفلسفة السياسية والأخلاقية هو عبارة عن عقد بين طرفين، كالحكومة والشعب، ويحدد حقوق وواجبات كل طرف. وقد توصل روسو إلى نظرية العقد الاجتماعي من خلال نظريته للطبيعة البدائية والعشوائية التي كان يعيشها الإنسان، حيث رأى أنه كان لفرض القوانين التي نظمت حياة الناس أساساً لزيادة شعورهم بحس المسؤولية والأخلاق، إلى جانب الالتزام المدني (بوحة، 2017).

بما أن اليهود عرفوا اضطهادات ومجازر دورية منذ العصور الوسطى وتواصلت إلى العصر الحديث، ومع عصر النهضة الذي دفعت أفكاره إلى نشأة الدول القومية وعصر الأنوار الذي نظّر للعقد الاجتماعي معتبرا كل المواطنين متساوين ولا تفرقة بينهم، وتم الفصل بين الدين والسلطة في أغلب الدول، بالإضافة إلى فشل اليهودية التلمودية والحركات الماشيحانية وحركة الحسيديم في إيجاد حلول جذرية للخلاص فقد كان هذا حافزا إلى ظهور طبقة من اليهود تدعو إلى الاندماج في المجتمعات التي تحتضنها، معتبرة الخروج من الجيتو خطوة رئيسية نحو الخلاص. وهذا ما أنشأ حركة تنويرية يهودية سميت "الهسكله" *השכלה*.

2.4. الهسكله: مبادئها وأهم أعلامها:

لم تولد الهسكله فجأة من عدم، ولكن التمهيد لابتهاقها كان منذ سنوات عدة، بل فلنقل منذ قرون سبقت ظهورها، فحركة الحسيديم مثلا كانت من الأسباب التي أدت إليها، حيث كان زعماء هذه الحركة الصوفية، بوعي منهم، وغالبا دون وعي، بناء لطريق الأنوار اليهودي، بما أنهم دعوا صراحة إلى القطع مع سلطة الحاخامات، واعتبروا أن الدين عبارة عن علاقة ذاتية ومباشرة بين المتعبد وإلهه.

⁸ إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724-1804)، فيلسوف ألماني، أنتج العديد من الكتب منها "نقد العقل المجرد"، "نقد العقل العملي" و"نقد الحكم".

أضف إلى ذلك الإجراءات التي اتخذت في غرب أوروبا بداية من أواخر القرن 18 ميلادي لتحرير اليهود ومنحهم حقوقا سياسية واجتماعية كاملة باعتبارهم مواطنين كبقية المواطنين المسيحيين. وكانت فرنسا السبّاقة إلى ذلك غداة ثورة 1789، حيث أقرت المساواة بين الأديان، وعملت على نقل ذلك إلى بقية الدول الأوروبية التي وقعت تحت سيطرتها إثر الحملات التي قادها نابوليون. ثم مع ثورات 1848 منحت أغلب الدول في غرب أوروبا حقوقا أوسع لهم (جريس، 1981، الصفحات 25-26).

وهنا ظهرت في ألمانيا وبعدها في شرق أوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر ميلادي حركة كان لها الأهمية الكبرى في التاريخ اليهودي، وهي حركة التنوير اليهودي أو "الهسكلاه" ⁷⁷⁷⁷، وقد أطلق على أنصارها "مسكليم" ⁷⁷⁷⁷. والهسكلاه كلمة عبرية تعني "التنوير"، وظهر المصطلح سنة 1832 للإشارة للحركة الأدبية العبرية التي دعا قادتها للإبتعاد عن الأدب المنغلق والمرتبط بالدين وذلك مسيرة للأدب العلماني الغربي وخاصة أدب عصر الأنوار الأوروبي (المسيري، اليهود والهسكلاه والصهيونية الموسوعة الموجزة، 2006، صفحة 251). وقد انتقلت الحركة ناحية الشرق أي إلى روسيا، حيث أسست جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا عدة مدارس لتعليم الحرف وصارت روسيا مركزا للحركة في أربعينيات القرن التاسع عشر، وخاصة في ليتوانيا، أين تم وضع أسس الأدب العبري الحديث، وتم نشر أول رواية بالعبرية سنة 1854. ولكن الكتاب الروس لم يتخلوا عن اليديشية للتعبير والكتابة. ومن أهم دعوات الحركة في روسيا نجد إسحاق دوف لفنسون أو "مندلسون روسيا" (المسيري، اليهود والهسكلاه والصهيونية الموسوعة الموجزة، 2006، صفحة 254).

وقد سعت العديد من العائلات اليهودية في ألمانيا إلى التخلي عن حياة الجيتو المغلقة وذلك بتمكين أبنائهم من الحصول على تعليم علماني، فظهرت طبعة مثقفين أبرزهم موسى مندلسون ⁷⁷⁷⁷ (1729-1786)، فقام مجموعة من أثرياء بروسيا متزعمًا لهم زعيم الطائفة اليهودية في برلين دانيال إيتزيج Daniel Itzig بإنشاء مدرسة مجانية علمانية لليهود في برلين سنة 1778، ودرس أبناء الفقراء في هذه المدرسة، إلى جانب أجزاء من التناخ واللغة العبرية، اللغة الألمانية والفرنسية والحساب والجغرافيا والتاريخ والفن. ثم أنشئت مدارس أخرى مثلها في عديد المدن الألمانية وأخرى لتعليم البنات (الوكيل، 2010، الصفحات 189-193).

قامت الهسكلاه على مبادئ عدة، أهمها إصلاح التعليم اليهودي التقليدي وإدخال مواد "علمانية" على البرامج التعليمية مع اعتماد اللغات القومية للدول مكان اليديشية ⁹ yiddish ⁷⁷⁷⁷. وهنا نلاحظ أن حركة التنوير اليهودي لم تدعو للقطع مع الدين اليهودي تماما، إنما دعت إلى إصلاح

⁹ اليديشية (أو الإيدية) yiddish ⁷⁷⁷⁷ هي لغة اليهود في أوروبا في العصور الوسطى وهي خليط من اللغة السلافية واللغة العبرية.

المنظومة الدينية. ودعت اليهود إلى الخروج من الجيتو والاندماج في المجتمعات "الحاضنة" لهم والقيام بالوظائف التي كانت ممنوعة عليهم كالتعليم الجامعي والعمل الفلاحي والحرفي.¹⁰

ويعتبر الفيلسوف اليهودي الألماني موسى مندلسون 1772-1827 (1729-1786)، الذي أطلق عليه "موسى الثالث"، فالأول هو النبي موسى، والثاني هو موسى بن ميمون، مؤسس حركة الإستنارة الهسكلاه Haskalah. وقد أظهر في دعوته أن اليهود عزلوا أنفسهم عن بقية الشعوب جسدياً في الجيتو، ولكن المشكل الأكبر هو عزلهم لأنفسهم في "جيتو فكري"، ولكي يتحرروا من هذا "الجيتو السياسي أو الجسدي"، لا بد لهم من تحطيم "الجيتو العقلي" الموازي له. وقد ترجم التوراة إلى اللغة الألمانية ولكن معتمداً على الأحرف العبرية (الحنفي، 1994، الصفحات 227-228). كما أصدر مندلسون مجلة أسبوعية سنة 1750 سماها كوهيليت موسار (أي الواعظ الأخلاقي).

أما من أهم أعلام حركة التنوير اليهودية نجد الأدبية راحيل فارنهاجن فون إنزه Rahel Varnhagen von Ense التي كان لها صالون أدبي اعتبر من أشهر الصالونات في ألمانيا وقد تردد عليه العديد من الأسماء الشهيرة من السياسيين والشعراء وكبار شخصيات المجتمع (المسيحي، اليهود والمسيحية والصهيونية الموسوعة الموجزة، 2006، صفحة 254).

3.4.. فشل الهسكلاه وظهور ثلاثة تيارات (العودة إلى الغيتو: اليهودية التقليدية،

مواصلة الاندماج، الحركة الصهيونية):

لقيت حركة التنوير اليهودي معارضة كبيرة من اليهودية التقليدية، التي خسرت سيطرتها على أبناء جلدتها ممن خرجوا من الجيتو السياسي والفكري، ورفضوا ما لا يتماشى مع العقل من دينهم، ودرسوا الفلسفة واللغات والفن، واندمجوا في المجتمعات المحيطة بهم. وكانت أبرز مخاوف اليهودية التقليدية هي تنصر اليهود، وهو فعلاً ما حدث، إذ أن أبناء مندلسون نفسه اعتنقوا الدين المسيحي إلا واحداً فقط، ومن أحفاده المؤلف المسيحي فيليكس مندلسون (1809-1847) الذي نشأ تنشئة مسيحية خالصة (الحنفي، 1994، الصفحات 230-231). بالإضافة إلى تنصر العديد من الشخصيات المهمة في حركة الهسكلاه كأمثال الرسام إدوارد بندمان Eduard Bendemann (1811-1889)، العالم اللغوي تيودور بنفاي Theodor Benfey (1809-1889)، العالم والمؤرخ جوتفريد برنهاردي Gottfried Bernhardt (1800-1875) والعديد غيرهم من السياسيين والكتاب والشعراء (الوكيل، 2010، صفحة 207).

ورغم كل مجهودات مثقفي اليهود في العصر الحديث للدفع ناحية إندماجهم في مجتمعاتهم الحاضنة، فهذا لم يقضي على شعور الكراهية الذي كان يكنه الألمان لهم منذ قرون، وابتعث شعور معاداة السامية نهاية القرن التاسع عشر، والذي يمكن أن نرجع أسبابه إلى عدة عوامل، منها أن رأس

¹⁰ Encyclopédie Universalis, Haskalah.

المال اليهودي صار منافساً شرساً في السوق الألمانية مما دعى الكيانات الاقتصادية الأخرى إلى تغذية شعور الكراهية تجاههم لخدمة مصالحها، كذلك نمت معاداة الفلاحين لهم بأنهم سبب تعاستهم وبؤسهم بأن أشعلوا الرأسمالية، وأيضا اتهام اليهود المندمجين بتلويث التقاليد والأعراف الألمانية. وظهر كتاب ساهموا في تغذية هذا الشعور وقاموا بشن حملة داعين فيها إلى إنهاء التواجد اليهودي في ألمانيا. ومن أهمهم فيلهام مارر Wilhem Marr و ثيودور فريتش theodor Fritsch وغيرهما (الوكيل، 2010، الصفحات 224-225).

أما في روسيا فقد كان اغتيال القيصر إسكندر الثاني في أواخر القرن التاسع عشر وتحديدًا سنة 1881 سبباً في اندلاع نار العداء على اليهود، حيث حدثت مئات المذابح بحقهم، وفي عام 1884م، اندلعت موجات أخرى من الاضطهاد، وأعمال العنف ضدهم، في بيلاروسيا وليتوانيا، ومناطق أخرى من الإمبراطورية الروسية. عام 1903م، قتل 50 يهودياً في أعمال شغب أعقبت مقتل طفلين. وهنا قامت اليهودية التقليدية المتمثلة في الحاخامات إلى الدعوة إلى العودة للجيتو، وذلك حفاظاً على الهوية اليهودية من الإندثار، محاججين دعاة الاندماج بأن أبناء موسى مندلسون تحولوا إلى الديانة المسيحية. واعتبروا أن الحل الوحيد هو انتظار المسيح لتخليصهم من العذاب والشتات ولكي يعيد لهم مجد الأيام الخوالي.

ومن جانب آخر ظهرت حركة جديدة، من مؤسسها تيودور هرتزل، تدعو إلى الخروج من الجيتو، وذلك ليس للانندماج في المجتمعات الحاطنة، إنما للعودة إلى أرض الميعاد، معتبرة أن على اليهودي أن يأخذ زمام أموره ومصيره بيده.

5. التحليل النقدي:

1.5. الرؤية البكائية للتاريخ اليهودي:

من أكثر الإشكاليات التي واجهت كتابة التاريخ اليهودي هي ما سماه المؤرخ سالو بارون "التصور البكائي للتاريخ اليهودي" (lachrymose conception of Jewish history)، أي النظر إلى الماضي اليهودي كمسار متصل من الاضطهاد والمعاناة، دون الالتفات إلى لحظات الاندماج والازدهار. هذا التصور، الذي تبنته بعض القراءات الدينية المسيحية واليهودية، أعيد إنتاجه لاحقاً في الأدبيات الصهيونية الحديثة باعتباره مبرراً لإقامة وطن قومي لليهود (Baron, 1928, pp. 223-230). لكن الدراسات النقدية تشير إلى أن الواقع أكثر تعقيداً؛ إذ عرف اليهود فترات طويلة من التسامح والازدهار، مثل العصر الذهبي في الأندلس الإسلامية، أو ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية حيث تمتعوا بحقوق جماعية واسعة (المسيري، 1999، ص. 45-52). من هنا فإن الاقتصار على سردية

"المأساة المستمرة" يفرغ التجربة اليهودية من أبعادها الحضارية، ويجعلها مجرد مقدمة درامية للمشروع الصهيوني.

2.5. إشكالية تقسيم التاريخ إلى "شتات أول وثاني وثالث"

تتبني بعض السرديات اليهودية المعاصرة تصنيف التاريخ إلى مراحل كبرى: الشتات الأول بعد السبي البابلي، الشتات الثاني بعد تدمير الهيكل، والشتات الثالث في أوروبا الحديثة. غير أن هذا التصنيف يعاني من التبسيط المفرط، لأنه يوحي بقطائع كبرى بينما الواقع أظهر استمرارية وتداخلات معقدة.

فالوجود اليهودي لم يكن دائماً في موقع الضعف أو العزلة، بل كثيراً ما لعب دور الوسيط بين النخب الحاكمة والشعوب، خاصة في مجالات التجارة والمالية (المسيري، 2010، ص. 64-71). كما أن التفاعل مع المجتمعات المضيفة أفرز أنماطاً متنوعة من الهوية الدينية والثقافية. لذلك فإن تقسيم التاريخ إلى "شتات" يخدم غاية أيديولوجية أكثر مما يعكس حقيقة تاريخية (جريس، 1967، ص. 27-36).

3.5. البعد الاقتصادي والسياسي في تفسير الاضطهاد

من الأخطاء المنهجية الكبرى اختزال الاضطهاد اليهودي في التفسير اللاهوتي الذي يعتبره عقاباً إلهياً أو قدراً محتوماً. الدراسات السوسيولوجية الحديثة تكشف أن الاضطهاد ارتبط غالباً بظروف اقتصادية وسياسية محددة. فقد كان اليهود يُستدعون لتأدية وظائف مالية وإدارية حساسة، مثل جباية الضرائب أو تمويل البلاطات، وهو ما وضعهم في موقع "كبش فداء" عند حدوث أزمات اقتصادية أو ثورات شعبية. بهذا المعنى، فإن العداء لليهود لم يكن دائماً دينياً خالصاً، بل كثيراً ما كان انعكاساً لصراعات اجتماعية أوسع (Baron, 1928, pp. 228-229). وهذا يعزز الحاجة إلى قراءة مركبة، تتجاوز التفسير الغيبي إلى تحليل بنيوي يربط الظاهرة بسياقاتها الاقتصادية والسياسية.

4.5. مراجعة صورة اليهود كضحايا سلبيين

صورة اليهود كجماعة سلبية تعيش على الهامش وتنتظر المصير، صورة تحتاج إلى إعادة نظر. فقد أثبتت الدراسات أن اليهود لم يكونوا دائماً في موقع الضعف، بل مارسوا أنماطاً مختلفة من الفعل والمقاومة الرمزية. فمن خلال بناء مؤسسات تعليمية داخلية (المدارس الدينية والحلقات التلمودية)، حافظوا على هوية ثقافية متماسكة. كما طوّروا حركات دينية مثل الحسيدية التي لم تكن مجرد رد فعل على الاضطهاد، بل محاولة لتجديد الروحانية اليهودية وإعادة تعريفها (المسيري، 2010، ص. 50-).

(52).

هذا يبرز أن الهسكلاه – أي التنوير اليهودي – لم يكن وليد القهر فقط، بل نتيجة دينامية داخلية للتجديد الفكري، قادها مثقفون يهود سعوا لدمج مجتمعهم في سياق الحداثة الأوروبية.

5.5. العلاقة المعقدة بين الاضطهاد والهسكلاه

يُصوّر أحياناً التنوير اليهودي على أنه مجرد استجابة للاضطهاد الأوروبي، غير أن ذلك يقلل من عمق المشروع. فالهسكلاه لم تكن فقط رد فعل سياسي، بل كانت مشروعاً ثقافياً شاملاً، حاول أن ينقل اليهود من الانعزال الديني إلى فضاء العقل والعلوم والفلسفة. لقد استلهمت قيم عصر الأنوار الأوروبي، لكنها أعادت صياغتها وفق حاجات الجماعة اليهودية (المسيحي، 2010، ص. 70-71) ومن هنا فإن الهسكلاه تمثل لحظة تحوّل داخلي، حيث بدأ اليهود يعيدون تعريف علاقتهم بالعالم وبأنفسهم، بعيداً عن الثنائية البسيطة "اضطهاد – مقاومة".

6.5. نحو رؤية نقدية متوازنة

التحليل النقدي يقودنا إلى رفض ثنائية "المأساة المطلقة" مقابل "الاندماج المثالي". فالتاريخ اليهودي هو تاريخ مركب: فيه لحظات اضطهاد وعزلة، كما فيه فترات ازدهار وتفاعل. وبدون هذا التوازن، يظل الخطاب إما خطاباً تبريراً للاضطهاد، أو خطاباً أيديولوجياً يبرر المشروع الصهيوني. وبذلك، فإن قراءة التاريخ اليهودي في ضوء النقد تُظهر أن الهوية اليهودية لم تُصنع فقط تحت ضغط الخارج، بل أيضاً عبر تفاعلات داخلية عميقة. ومن ثم، يصبح من الواجب تجاوز السرديات الأحادية نحو رؤية تعددية تكشف تعقيدات التجربة اليهودية بين الماضي والحاضر

6. الخاتمة:

إنّ قراءة التاريخ اليهودي تكشف بوضوح عن ميل متكرر إلى تضخيم المأساة وتحويلها إلى نواة للهوية. لقد حوّل بعض المفكرين اليهود فكرة "الاضطهاد الأبدي" إلى أداة تفسيرية لكل شيء، حتى أصبحت التجربة اليهودية أشبه بقدر لا فكاك منه. غير أنّ هذا التصوّر لا يبرز سوى جانب واحد من الواقع، ويخفي عمداً اللحظات التي عاش فيها اليهود اندماجاً وازدهاراً في مجتمعات إسلامية أو أوروبية، كما في الأندلس أو إسطنبول. هنا يبرز نقد بارون بوضوح، إذ عدّ الرؤية البكائية تشويهاً للتاريخ أكثر مما هي وصف له.

هذا الميل إلى تضخيم المعاناة ليس بريئاً؛ بل أدى إلى تحويل اليهودي من إنسان متعدد الأبعاد إلى "ضحية أبدية"، وهو ما استُخدم لاحقاً كذخيرة أيديولوجية لتبرير مشروع قومي على حساب الآخر.

فبمجرد أن تُختزل الهوية في كونها استجابة للاضطهاد، يصبح كل "حل" قومياً أو استيطانياً مشروعاً في نظر أصحابه. وهذا ما نراه في الفكر الصهيوني الحديث، الذي أعاد صياغة سردية الشتات كبرهان على "ضرورة العودة"، متجاهلاً أن ملايين البشر عاشوا في تلك المجتمعات كجزء من نسيجها الاجتماعي والثقافي.

من هنا يمكن القول إن الرؤية اليهودية للتاريخ كثيراً ما كانت انتقائية، تستحضر المعاناة وتتجاهل التفاعل الإيجابي. وحتى الحركات التنويرية مثل الهسكلاه، التي كان يفترض أن تفتح أبواب النقد الذاتي والانفتاح، أعيد لاحقاً توظيفها كدليل على فشل الاندماج، وكأن اليهود محكوم عليهم دوماً بالانعزال، حتى وإن سعوا بإرادتهم إلى المشاركة في الفضاء العام.

النقد لا يقتصر على المبالغة في المأساة فحسب، بل يمتد إلى البعد الأخلاقي: إذ كيف يمكن لجماعة عانت من الإقصاء والعنصرية أن تعيد إنتاجهما على نحو أعنف في تجربتها السياسية المعاصرة؟ هذا التناقض الصارخ يجعل من "ذاكرة الاضطهاد" وسيلة تبرير للهيمنة بدلاً من أن تكون دافعاً للتعايش أو العدالة. فالمأساة التي تحولت إلى أيديولوجيا لم تعد شاهداً على معاناة بشرية، بل أداة لإلغاء معاناة الآخرين.

إن الخطر الأكبر في هذا السياق يكمن في أن التاريخ اليهودي، بقراءاته البكائية أو الصهيونية، فقد طابعه الإنساني المتعدد لصالح سردية مغلقة تخدم أهدافاً سياسية. فالإنسان الذي كان يعيش تفاصيل يومية من حب وعمل وعبادة وإبداع، تحول إلى "رمز" محصور بين ثنائية الضحية والخلّاص. هذه الاختزالية لا تسيء فقط إلى الحقيقة التاريخية، بل إلى الجوهر الإنساني ذاته.

وبذلك، فإن المطلوب ليس إنكار الاضطهاد الذي عاشه اليهود، بل تفكيك طريقة توظيفه في الخطاب والذاكرة. التاريخ لا يبرّر الاستيطان، ولا يمنح شرعية لمشاريع الهيمنة. وإذا كانت الجماعات اليهودية قد استطاعت أن تنهض من محنها بفضل العلم والفقه والإبداع، فإن إعادة اختزالها في "أمة مضطهدة" لا يخدم إلا المشاريع الأيديولوجية.

من هنا تبرز ضرورة قراءة التاريخ اليهودي قراءة نقدية شاملة: لا تنكر المآسي، لكنها ترفض أن تُحوّل المأساة إلى قدر أبدي أو إلى رخصة سياسية. فالنقد الحقيقي هو الذي يرد الاعتبار للإنسان قبل الأيديولوجيا، ويكشف كيف تحولت الذاكرة إلى أداة تلاعب، وكيف استُخدم التاريخ لإنتاج أسطورة قومية تستند إلى الألم لكنها تمارس الظلم.

إن الوعي بالماضي يمكن أن يساهم في بناء مستقبلنا، حيث تبقى دروسه حاضرة لتوجيهنا.

قائمة المصادر والمراجع:

أبو الحسن يهودا ب صاموئيل اللاوي، الكتاب الخزي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2012.

أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية صيدا بيروت، الطبعة الأولى

2005.

جعفر هادي حسن، اليهود الحسيديم نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، تقاليدهم، دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى 1994.

سبري جريس، تاريخ الصهيونية: الجزء الأول 1862-1948، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، الطبعة الثانية 1981.

عبد المنعم الحنفي، موسوعة متصوفة وفلاصفة اليهود، مكتبة مدبولي، 1994.

عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، الطبعة الأولى 1999.

عبد الوهاب المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني: جذوره ومساره وأزمته، دار الشروق، الطبعة الأولى 2010.

كارلتون جوزيف هنتلي، الثورة الصناعية، مطبعة العاني، الطعة الأولى 1950.

محمد الوكيل، تاريخ اليهود في دول غرب أوروبا، دار النهضة العربية 2010.

مرسيا إلياد ويوان ب كوليانو، معجم الأديان، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2018.

نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر 1985.

مقالات:

أحمد بن بوح، المواطنة والمصلحة العامة في الدولة الحديثة: العقد الاجتماعي عند روسو نموذجاً، مجلة الغناسة وعلم الاجتماع، العدد الثاني ديسمبر 2017.

فاطمة الزهراء مفيد، فرقة الحسيديم – النشأة والتطور-، مجلة الإستيعاب، العدد الثامن ماي 2021.

Baron, S. W. (1928). A Social and Religious History of the Jews. New York: Columbia University Press.

Levy Antoine et Alexandre Soljénitsyne, Deux siècle ensemble :1795-1995 « mais quand même », revue des études slaves, tome 75, fascicule 3-4, 2004.

Rosner Raphael, Histoire des juifs en Pologne, le monde juif 1980/2, centre de documentation juive contemporaine.

Encyclopédies :

Encyclopédie Britannica.

Encyclopédie Universalis.